المحاضرة السابعة

اللسانيات التداولية والخطاب

المحتويات:

1-مفهوم مصطلح التداولية

2-نشأة التداولية و تطورها

3- المقاربة التداولية للخطاب الأدبي

المحاضرة السابعة: اللسانيات التداولية والخطاب

إن اللّسانيات التداولية اتجاه لغوي ظهر وازدهر على ساحة الدرس اللساني الحديث والمعاصر؛ يهتم بدراسة اللغة أثناء الاستعمال، ولعل هذا ما جعله أكثر دقة وضبطا، حيث يدرس اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة، وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخَاطبين.

ويعود تأسيس التداولية كمجال يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلى العقد السابع من القرن العشرين بعد تطويرها على يد ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد هم : "أوستن AUSTIN " ، و" سيرل SEARLE "، و" غرايس GRICE" . لكن قبل ذلك تعود البوادر الأولى للتداولية إلى الفلسفة التحليلية، وإلى البحث في قضية الدليل وعلاقته بالفكر والمرجع من خلال ، المنحى السيميائي لدى كل من" ش.س. بيرس " و" تشارلز موريس، والتي كانت أرضية صلدة لتشكل المفاهيم التداولية باعتبارها منهجا لسانيا قبل أن تكون منهجا نقديا لتحليل الخطاب.

1-مفهوم مصطلح التداولية Pragmatique :

يترجم مصطلح Pragmatique بعدة كلمات باللغة العربية، فهناك : الذرائعية، والتداولية والبراكماتية، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبية، والنفعية، والتبادلية ...وشاع مصطلح" التداولية" بين الدارسين في ميدان اللغة واللسانيات ؛ لأنه يحيل على التفاعل والحوار والتخاطب والتواصل والتداول بين الأطراف المتلفظة . أما مفهوم الذرائعية، فيدل على مدرسة فلسفية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، مع "جون ديوي " و "ويليام جيمس" اللذين يريان أن الحقيقة تكمن في طابعها المنفعي والمصلحي.

وأقدم تعريف للتداولية جاء به "تشارلز موريس C. Mouris " سنة 1938 وهي في نظره "« تعالج العلاقة بين العلامات ومستعمليها »[1] .أما " جاك موشلار Jaque Moeschler " و " آن ربول Anne Reboul " فقد ربطا مفهوم التداولية بالمجال اللساني، فعرفاها بأنها « دراسة الاستعمال اللغوي المقابلة لدراسة النظام اللساني الذي يعد من اهتمام اللسانيات بصفة خاصة».[2]

يربط "منقونو Maigueneau " الدراسة التداولية بالسياق؛ فهو يرى أن المكون الدلالي يعالج وصف الملفوظات في سياقاتها[3] ، حيث تسعى التداولية إلى تحديد قصد المتكلم من خلال سياق محدد.

ولعل أشمل تعريف التداولية هو ما حدده " فرانسيس جاك F. Jacques" بقوله : « التداولية تتطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية معا».[4]

2-نشأة التداولية و تطورها:

2-أ /الإرهاصات:

2-أ /1 .عند شارل ساندرس بيرس:

يعد الفيلسوف و السيميائي شارل ساندرس بيرس من الأوائل الذين أحدثوا تطورا في المجال اللساني والفلسفي، حيث ارتبطت عنده التداولية بالمنطق ثم بالسيميوطيقا، و ارتبطت كذلك بميدان المعرفة والمنهج العلمي، فقد ظهرت ملامح التداولية الأولى مع ظهور مقالة" كيف نجعل أفكارنا واضحة "عام 1878 ، وقد تساءل بيرس متى يكون للفكرة معنى؟ ودرس الدليل وعلّل إدراكه بواسطة التفاعل الذي يحدث بين الذوات والنشاط السيميائي، وقد حاول تطوير التجربة الإنسانية من خلال الأدلة، وربطها بالواقع الاجتماعي، إن المدلول عليه يفترض تجربة إنسانية مبنية لا على ماهو فردي بل على ماهو اجتماعي .[5]

يرى بيرس أنه بالتحديد التداولي تتحدد العلامة اللسانية بحكم استعمالها في تنسيق مع علامات أخرى من طرف أفراد جماعة معينة فللعلامة اللسانية علاقة بظروف استعمالها و محيطها ومن خلاله تحمل معناها.

2-أ /2 .عند تشارلز موريس:

يرجع أول استعمال لمصطلح التداولية إلى الفيلسوف" تشارلز موريس Charles mouris" سنة 1938، حيث اعتبر التداولية جزءا من السيميائية عند تمييزه لثلاثة فروع لهذه الأخيرة، وهي : علم التراكيب، وعلم الدلالة والتداولية . وقد نبه موريس إلى علاقة العلامة بمستعملها وطريقة توظيفها و أثرها في المتلقين، وكل هذه الفروع مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، فالتداولية تدرس كيفية تفسير المتلقي للعلامة و هذا التفسير لا يتم بمعزل عن البنى التركيبية للغة المستخدمة.

لقد نظر موريس إلى الأدلة وبحث كيفيات تأثيرها على المرسل إليه، فكانت نظرته إليه نظرة سلوكية، وقال بأنها الطاغية على الموقف وهي التي تهيء المخاطب لاتخاذ رد فعل معين (إجابة، رد فعل، موقف..).

2-ب / مرحلة الاكتمال والنضج:

2-ب/ .1 عند أوستين Austin :

تأثر بالفيلسوف" فنجنشتاين " الذي اعتبر اللغة إنما تستخدم لتصف العالم وماهي إلا أداة رمزية تشير إلى الواقع والوقائع، و قد تصدى أوستين لهذه الأفكار، و نقدها و أنكر أن تكون الوظيفة الأساسية للغة هي الإخبار؛ لقد أنكر أوستين أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هي وصف حال الوقائع

وصفا إما يكون صادقا أو كاذبا و أطلق عليه" المغالطة الوصفية"، ليميز بين نوعين من العبارات التي تكون أفعالا منجزة : الأولى تخبر عن وقائع العالم الخارجي ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، والثانية تنجز بها أفعال فهي لا تحتمل صدقا ولا كذبا .[6]

إذن، يمكن تلخيص ما سبق في نقطتين:

– رفض أوستين لثنائية الصدق والكذب.

– قراره بأن كل قول عبارة عن فعل.

- مّيز أوستين بين نوعين من الأفعال اللغوية :

–أفعال إخبارية : تصف الواقع يُ حكم عليها بالصدق أو الكذب.

–أفعال أدائية (إنشائية) : لا تصف الواقع يُ حكم عليها بمعيار ثان هو" النجاح "أو" الإخفاق."

- قسم أوستين الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف :

–الأفعال اللغوية الدالة على الحكم (الحكميات).

–الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة (أفعال القرارات).

–الأفعال اللغوية الدالة على الوعد (الوعديات).

–الأفعال اللغوية الدالة على السيرة (أفعال السلوك).

–الأفعال اللغوية الدالة على العرض (أفعال الإيضاح).

2–ب/ 2 .عند سيرل Searle:

عمل على متابعة عمل أستاذه" أوستين"، وأكد الربط بين العبارة اللغوية و مراعاة مقاصد المتكلمين، لأن" الغرض المتضمن" في القول عنصر ومكون أساس من مكونات القوة المتضمنة في القول.

- اهتم بـ"القوة الإنجازية " للفعل الكلامي و هو ما عُرف بمفهوم" المنطق الإنجازي" .
- قسم الأفعال إلى مباشرة وغير مباشرة .

حدد مستويي اللغة بـ:

–المستوى المباشر = المعنى الحرفي (اللغة العادية).

–المستوى غير المباشر = الاستعارة والمجاز...

- جعل سيرل نظرية الأفعال الكلامية مقسمة إلى خمسة أصناف : الإخباريات – التوجيهيات – الالتزاميات – التعبيريات – الإعلانيات.

2-ب /3 .عند غرايس Grice:

يعد بول غرايس واضع مفهوم" الاستلزام الحواري" « حيث يدور أشهر مقالاته – و هو المقال المنشور سنة – 1975 حول ما يسميه صاحبه " منطق المحادثة" ويسجل هذا المقال تطورا في مفهوم الدلالة غير الطبيعية ويصوغ مقاربة لإنتاج الجمل وتأويلها . وقد أدخل مفهومين مهمين هما : الاستلزام الخطابي(الاستلزام الحواري)، ومبدأ" التعاون"».[7]

إن "الاستلزام الحواري" آلية من آليات إنتاج الخطاب يقدم تفسيرا صريحا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول الفعل أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة مثل : (ناولني الكتاب من فضلك) المنجزة في مقام محدد يخرج معناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس و هو ما تفيده القرينة (من فضلك).

اقترح غرايس مبدأ عاما في مركز التواصل هو مبدأ "التعاون " يستمد أطروحته من القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تفرض نفسها على جماعة لغوية لتنظيم النشاط الكلامي، ورأى أن المتخاطبين ُ فترض أن يحترموا هذا المبدأ بطريقة عقلانية ومتعاونة في إنتاج الكلام وتأويله.

يرى غرايس أن توصف ظاهرة الاستلزام الحواري انطلاقا من مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه باعتبار أن مصدر الاستلزام هو الخرق المقصود لإحدى القواعد الأربع مع احترام المبدأ العام، مبدأ "التعاون".[8]

3- المقاربة التداولية للخطاب الأدبي:

إن المقاربة التداولية قد عرفت انتشارا في الغرب، لكنها مازالت في بداياتها الأولى في العالم العربي، على الرغم من وجود آثارها في تراثنا العربي القديم في البلاغة والفقه والفلسفة وأصول الفقه...، ولم يتم استثمارها بعد في مقاربة النصوص والخطابات الأدبية، إلا في بعض الاجتهادات المحدودة.

يقصد بالمقاربة التداولية تلك النظرية النقدية التي تدرس الظواهر الأدبية والثقافية والفنية والجمالية في ضوء التداوليات اللسانية. ويعني هذا أن المقاربة التداولية تدرس النص أو الخطاب الأدبي في علاقته بالسياق التواصلي، والتركيز على أفعال الكلام، واستكشاف العلامات المنطقية الحجاجية، والاهتمام بالسياق التواصلي والتلفظي. وبتعبير آخر، تركز المقاربة التداولية على عنصر المقصدية والوظيفة في النصوص والخطابات. وبهذا، تكون التداوليات قد تجاوزت سؤال البنية وسؤال الدلالة، لتهتم بسؤال الوظيفة والدور والرسالة والسياق الوظيفي .[9]

ومن أهم هذه المقاربات التي انفتح عليها الأدب بصفة عامة، والبلاغة بصفة خاصة، المقاربة التداولية بكل تياراتها الحجاجية، والمنطقية، واللغوية، والتخاطبية، والتداولية، والسياقية . ومن ثم، فثمة

تصورات تداولية عدة حول النص والخطاب الأدبي تختلف من تيار إلى آخر، ولقد لخص "جميل حمداوي" مجمل هذه التصورات التداولية التي استفاد منها النص الإبداعي بصفة خاصة، و الخطاب الأدبي والفني بصفة عامة فيما يلي.[10]

-النص الأدبي خطاب قبل كل شيء.

-النص الأدبي خطاب لغوي وظيفي.

-النص الأدبي إبلاغ تواصلي.

-النص الأدبي تخاطب وتبادل.

-النص الأدبي تلفظ في سياق.

-النص الأدبي أفعال كلامية.

-النص الأدبي مقصدية.

-النص الأدبي تفاعل.

-النص الأدبي حجاج وإقناع.

-النص الأدبي استلزام حواري.

-النص الأدبي حوارية تداولية.

-النص الأدبي سياق.

-النص الأدبي إحالة.

على سبيل التوسع يمكن تناول كل جزئية مما سبق بشيء من التفصيل:

-النص الأدبي خطاب قبل كل شيء.

إن المقاربة التداولية تتجاوز الجملة لدراسة الخطاب والنص، وخاصة مع لسانيات النص واللسانيات الوظيفية كما عند فان ديك – مثلا –في كتابه"النص والسياق"، وهاليداي وحسن رقية في كتابهما "الاتساق في اللغة الإنجليزية" . ويعني هذا أن التداوليات النصية تعاملت مع الخطاب ككلية عضوية متسقة ومنسجمة، بل اعتبرته جملة نصية كبرى، يمكن التعامل معها كالتعامل مع الجملة اللسانية.

وبناء على ماسبق، تتعامل التداولية مع النص الأدبي باعتبار خطابا وملفوظا لغويا ذا كلية عضوية، سواء أكان ذلك الخطاب شفويا أم كتابيا، حيث ترتبط ملفوظاته بالوظيفة، والسياق المقامي، والأداء الإنجازي، وندرس مكوناته التلفظية السياقية، وروابطه الحجاجية المنطقية وغير المنطقية، ونربطه أيضا بالحوارية، والمقصدية، والإحالة، والتفاعل، والتخاطب التداولي... [11]

-النص الأدبي خطاب لغوي وظيفي.

يجري التعامل مع النص الأدبي باعتبار خطابا يحمل في طياته وظائف ومقاصد سياقية، فكل ما يوجد في النص يدل بشكل من الأشكال، ويحيل على أدوار تداولية ومقاصد مباشرة وغير مباشرة، فليس هناك في النص الأدبي ما هو مجاني وزائد، بل ترتبط الدلالة بالمعاني السياقية والرسائل الظاهرة والمضمرة .بمعنى أن لغة النص الأدبي وظيفية وتداولية، تحمل في مظانها أبعادا سياقية سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وتا ريخية، ونفسية، وجنسية، وعقائدية...أي : لم يعد النص الأدبي علامات وبنيات داخلية مغلقة، كما كانت تقول البنيوية اللسانية والسيميائيات، بل النص الأدبي بنية ودلالة وتركيب ووظيفة سياقية قبل كل شيء . لذا، لابد من مراعاة السياق والوظيفة في تحليل النصوص والخطابات الأدبية، ولاسيما الشعرية منها[12].

وهكذا، لا توظف لغة النص الأدبي بشكل عشوائي وفوضوي، بل تزخر بمجموعة من الدلالات السياقية والتداولية والحجاجية إقناعا وتأثيرا ، فكل ما في النص يدل ويحيل ويحمل وظائف سياقية متنوعة، سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية.

-النص الأدبي إبلاغ تواصلي.

ترى المقاربة التواصلية أن النص الأدبي يرتكز على مجموعة من الوظائف وأهمها الوظيفة التواصلية، وخير من يمثل هذا التيار التواصلي الذي يرى النص الأدبي إبلاغا وتواصلا .

يتداخل في خطاب المتكلم أكثر من مقصد، لكنّ المقاصد التي اهتّم بها التداوليون هي المقاصد المتعلقة بالخطاب أو التخاطب في بعده التواصلي، نذكر منها:

-المقصد اللساني الذي يظهر في التحوّلات الخطابية التي لا تحيل على الحدث في حدّ ذاته بل تحيل على عزم المتكلّم ونّيته السابقة (عزم، نوى، قّرر، أراد، حاول، قصد).

-المقصد التواصلي الذي يهدف من خلاله المتكلّم ربط ميثاق تواصلي مع القارئ من داخل الخطاب نفسه . وأغلب التداوليين يشترطون في عملية التواصل مع القارئ مقصدية تواصلية مسبقة، فلكي يسهل على القارئ فهم دلالة الخطاب ينبغي عليه أّولا أن يدرك المقصدية التي تنظمه وتوّجه مغزاه.

-المقصد التداولي الذي يتمثل في مختلف الشروط الاستراتيجية التي يقصد إليها المتكلم في عملية تخاطبه مع القارئ، والهدف منها مساعدته وتوجيهه التوجيه الصحيح لفهم دلالة النص أو تأويله تأويلا يلائم سياقه الخطابي، ومعرفة هذه المقصدية ضرورية في العملية التداولية.

-المقصد الحواري الذي يتعلق بالوعي الحواري الذي يجسّده الكاتب في خطابه الروائي لإنشاء حوار ثقافي وللخروج من دائرة الذاتية أو الصوت الواحد للانفتاح على الآخر.

غير أنّ المفاهيم المقصدية من خلال ما سبق بقيت مقّيدة ومحصورة في المتكلم وعلاقته بالخطاب، ولذلك ظهرت اتجاهات أخرى تنادي بتوسيع مفهوم المقصدية لتشمل المتكلم والمخاطب معا، من ذلك أنّ "جيرار جينات Gérard Jenette" يميّز بين المقصدية المتعلقة بالذات المنتجة للخطاب ويسميها "مقصدا intention" والمقصدية المتعلقة بالذات المتلقية له ويسّميها "اهتماما attention " ، وهذا يعني أنّ المتلقي" يمارس "أيضا نشاطا مقصديا سواء تجاوب مع مقصدية الباث أو لم يتجاوب معها.[13] وينشأ عن المقصدية الأولى في العمل الأدبي علاقة فنية وعن المقصدية الثانية علاقة جمالية.

ومن الواضح أنّ البعد التواصلي الذييتحقّق من خلال مفهوم المقصدية لا يقتصر على الخطاب العادي بل يشمل الخطاب الأدبي، وإذا كان الخطابان يشتركان في المقصد اللساني والمقصد التواصلي والمقصد التداولي، فإنّ الخطاب الأدبي ينفرد بالمقصد الحواري والمقصدية المزدوجة التي ينظّر لها جينات . ولكنّ التسليم بحضور البعد التواصلي في الخطاب الأدبي يقتضي تبّني طريقته المخصوصة في التواصل مع القارئ (مقارنة بالخطاب العادي) ، وإذا كان الجميع يسلّم بأنّ التواصل في الأدب غير مباشر فكيف يتواصل الكاتب مع القارئ في النص الأدبي؟ [14]

يتحقّق التواصل الأدبي وفق المنظور التداولي من خلال مفاهيم وآليات استخدمتها التداولية في تحليل النصوص الأدبية، من أبرزها مفهوم التعاون بين الكاتب والقارئ أو"الميثاق الأدبي". ومفهوم التعاون الذي أرساه غرايس باعتباره مبدأ من مبادئ التخاطب يتحقّق من خلال حسن ظّن المخاطب بالمتكلّم وافتراضه أنّ الخطاب منسجم كيفما كانت طريقة تقديمه . وقد تحّول هذا المفهوم بعد ذلك من مبدأ ينظّم عملية التخاطب إلى آلية من آليات النص الأدبي يستمّد منها انسجامه ويحقّق التواصل مع القارئ . وقد اعتبر دومينيك مانغينو[15] هذا التعاون ضربا من" الميثاق الأدبي " الضمني الذي على أساسه يوّجه الكاتب خطابه إلى قارئ ضمني أو مفترض يتقاسم معه معرفة خلفية ومجموعة من المراجع والمعايير والافتراضات المسبقة بالإضافة إلى التقاليد الأدبية والمعلومات التي يوفّرها الكاتب للقارئ في نصه لإنجاح العملية التواصلية.

إنّ مفهوم" القارئ المتعاون " يعني أنّ تفكيك النص هو نشاط تعاوني لا يقف على مقاصد الكاتب بل على القرائن التي يوفّرها في النص ليساعد القارئ على فهم النص ويوّجهه إلى مفاتيحه . ومن هذا المنطلق يمكّن النشاط التعاوني القارئَ من استخلاص ما لا يقوله النص صراحة وملء فراغاته على نحو يحدث فيه أثرا محدّدا من خلال ما يسّميه مانغينو بـ"التعاون التأويلي"، وهو تعاون الكاتب والقارئ على تحقيق التواصل الأدبي :تعاون الكاتب بما يضعه في النص من قرائن ومعلومات وما يبنيه من استراتيجيا خطابية لتوجيه الفهم والتأويل وإحداث أثر تداولي ما، وتعاون القارئ بالمجهد الذي يبذله في الفهم

والتأويل .ولكنّ السؤال الذي طرح على التداوليين هو : إذا يبذله في الفهم والتأويل . ولكنّ السؤال الذي طرح على التداوليين هو : إذا كان الخطاب الأدبي يؤدّي وظيفة تواصلية، فلَم يستخدم الضمني "l'implicite" الذي يقتضي من القارئ جهدا تأويليا قد يكون عائقا دون التواصل؟[16]

يرى التداوليون أنّ الضمني ليس من باب الاقتصاد في القول أو الترف الأسلوبي، وإنما هو من الوسائل التي تقوّي عملية التواصل بين الكاتب والقارئوتحقّق مبدأ التعاون، وذلك أنّ مجهود القارئ في الفهم والتأويل لا يولّد لديه شعورا باللذة فحسب، بل يجعله يشعر بمشاركة المؤلّف في إنتاج دلالة النص ولا يكتفي بالكشف عن دلالة النص الكامنة فيه، وهذا ما ذهب إليه جيرار جينات كما أوضحنا من اعتبار دلالات النص الأدبي نتاجا لالتقاء مقصدية الكاتب واهتمام القارئ، بل إنّ " فان ديك Van Dijk " –وهو من أبرز المنظّرين للتداولية الأدبية – يذهب إلى أنّ الدور الموكل إلى القارئ أكبر من دور الكاتب فـ « بينما يبدو المؤلف حرّا في تحديد بناء ملفوظه فإنّ القارئ هو المطالب بالتعاون بالشكل الأقصى (يتعرّف على معلومة إضافية –يقدّم تفسيرات جديدة –يفترض فرضيات».[17]

–النص الأدبي تخاطب وتبادل.

من المعروف أن النظرية التخاطبية جاءت تطويرا للنظرية التواصلية الإبلاغية التي عجزت عن تفسير مجموعة من القضايا اللغوية بشكل جيد؛ لأنها كانت تتعامل مع التخاطب في معزل عن سياقها الفعلي والإنجازي. ويعني هذا أن "الدراسات التخاطبية تعد امتدادا، واستكمالا لجهود المدرسة الوظيفية، وتأتي هذ الدراسات نتيجة طبيعة لشعور المهتمين بها بإخفاق النموذج التقليدي للتخاطب في تقديم تفسير ناجح لعملية التخاطب.[18]

وتذهب النظرية التخاطبية إلى أن النص الأدبي تخاطب وتداول يجمع بين أطراف ثلاثة هي : المرسل المتكلم الذي قد يكون كاتبا أو مؤلفا أو ساردا أو شخيصة، والمرسل إليه الذي قد يكون شخصا مخاطبا، كأن يكون قارئا أو متلقيا أو شخصية مقابلة للشخصية المتكلمة .وهناك العنصر الثالث الذي يتمثل في الخطاب التداولي أو الرسالة المرسلة . وبهذا، تكون هذه النظرية قد مهدت لميلاد القارئ أو المتلقي أو المتقبل. وتكون، من جهة أخرى، قد أعطت نقطة انطلاق للنظريات التي تعنى بالقارئ المستقبل، كجمالية التلقي ليوس وآيزر، وغيرها من النظريات.

وهكذا، فالنظرية التخاطبية تستوجب وجود ثلاثة أطراف : المرسل (الباث–المتكلم –المتلفظ– المرسل– المتحدث–المبدع)، والرسالة(النص–الأدب–الخطاب –التلفظ)...، والمتلقي (القارئ–المرسل إليه–المستقبل–المتلفظ إليه). ومن ثم، فالباث أو المرسل هو الذي يسنن رسالة ما، سواء أكانت ذهنية أم وجدانية، ليرسلها إلى المتلقي ليفككها في ضوء سنن مشترك أو لغة يعرفها كل من المرسل والمرسل إليه.

ويعني هذا كله أن الناقد التداوي يمكن أن يتعامل مع النص الأدبي أو الخطاب الإبداعي باعتبار بنية تخاطبية وتبادلية بين طرفين ضمن سياق عام، أو سياق موقفي، أو سياق نصي، مع تحديد نوع التخاطب والتبادل التداولي.

-النص الأدبي تلفظ في سياق.

كان من أوّل مهام المناهج اللسانية غير البنيوية ولاسّيما التداولية وهي تقتحم مجال التنظير للنصوص الأدبية وتحليلها أن تعمل على تجاوز التحليل البنيوي وذلك بالتأكيد على أنّ كلّ نص هو نص في السياق . وقد وجد التداوليون في السيميائية خلفية نظرية غير النظرية البنيوية، لأنّ السيميائيين أرسوا منهجهم على أساس التمييز بين ثلاثة مستويات أو علاقات للعلامات وهي المستوى النحوي الذي يخصّ علاقات العلامات فيما بينها، والمستوى الدلالي الذي يخصّ علاقة العلامات بالمرجع والمستوى التداولي الذي يخصّ علاقة العلامات بالمستعمل المؤول . وانطلاقا من ذلك تجاوزت التداولية التعامل البنيوي مع النص باعتباره نظاما (مستقلا عن السياق أو المرجع) إلى التعامل معه باعتباره خطابا أو عملا لغويا مرتبطا بمقامومنتَجا في سياق.

ولئن أقّر الباحثون التداوليون باختلاف الخطاب التواصلي أو الإبلاغي عن الخطاب الأدبي في مستوى علاقة الخطاب بالواقع أو كيفية إحالته على السياق ودرجة حضور عناصر المقام فيه، فإنّ هذا الاختلاف لا ينفي أن يكون للنص الأدبي مقامه أو سياقه الخاص به . فالمتكلم والمخاطب مثلا يمكن أن يغيبا في المستوى اللساني أي الخطاب أو النص تغييبا مقصودا لعدم توفّر قرائن لفظية دالة عليهما، ولكنهما يبقيان مع ذلك حاضرين في المستوى التداولي. إنّ الكاتب يمكن أن يختفي باعتبارهمتلفّظا حقيقيا ويبقى حاضرا من خلال" العقود " التداولية النحوية والدلالية التي تنتظم الخطاب . وانطلاقا من هذا المنظور أعيد تأويل بعض النظريات الأدبية/التواصلية القائمة على المقابلة بين النص الأدبي والنص الإبلاغي.

-النص الأدبي أفعال كلامية.

إن النص الأدبي ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث، بل يهدف عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال ثنائية افعل ولا تفعل [19]. ويعني هذا أن الخطاب أو النص الأدبي، في مفهوم التداوليات التحليلية التي ظهرت في سنوات الخمسين من القرن العشرين مع أوستين، كما في كتابه " نظرية أفعال الكلام" وسيرل في كتابه" أفعال اللغة" ، عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز. ومن هنا، تتبني نظرية الأفعال الكلامية على ثلاثة عناصر

رئيسة هي :أولا، فعل القول، ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل في طياتها حمولات قضوية وإخبارية . ومن هنا، تشتمل على مستوى صوتي وتركيبي ودلالي ، مثل: (أشكرك يا علي)، وثانيا، الفعل المتضمن في القول : وهو الفعل الإنجازي، وهو يحدد الغرض المقصود بالقول، كصيغة الأمر في هذه الجملة: (انتظري اللحن الجديد)، وثالثا، الفعل الناتج عن القول، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول، كإقناع المخاطب، وحثه، وإرشاد ، وتوجيهه، أو تضليله ...وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، و بدرجة متفاوتة، هي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملا.[20]

علاوة على ذلك، يميز أوستين بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية، وتتنوع هذ الأقوال الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة ؛ فالأقوال الإنجازية قد تكون لها قوة حرفية، مثل :الاستفهام، والتمني، والأمر ...وقد تكون لها قوة إنجازية حوارية وسياقية، مثل :الالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتحسر،...

-النص الأدبي مقصدية.

مثلما ذهب التداوليون إلى أنّ النص الأدبي هو نصّ في سياق انطلاقا من قاعدة" لا نصّ بدون سياق " ذهبوا كذلك إلى أنّ النص الأدبي هو نصّ ذو مقاصد انطلاقا من قاعدة" لا نصّ بدون مقاصد ." لاسيما بعد أن انتقلت " المقصدية " من نظرية في الفلسفة الظاهراتية (هوسرل) إلى مقولة أساسية من المقولات التداولية، و"تحوّلت مقاصد التكلّم في الدراسات التداولية الحديثة إلى منطلق أساسي من منطلقات تحديد الخصائص الإنشائية في الخطاب.[21]

وأوّل تَحَد واجه التداولية في ربطها النصّ الأدبي بمفهوم المقصدية هو مفهوم" الأسلوب "الذي يُعَدّ مفهوما مضادّا له ولا يمكن تجاهله باعتباره مقّوما أساسيا في النص الأدبي، لاسّيما وقد نشأ عن الاهتمام المتزايد به منهج قائم بذاته ومخالف للتداولية هو الأسلوبية، الذي لئن تراجع حضوره مقارنة بحضور مناهج أخرى كالنصّانية والإنشائية فإنه مازال منهجا معتمدا في التحليل الأدبي وله أنصاره ومنظروه . ولتحقيق نوع من المواءمة بين المفهومين ذهب التداوليون إلى أنّ تصّور الأسلوب على أنه انزياح انطلاقا من ثنائية النمط والعدول أو الاستعمال العادي والاستعمال الأدبي هو تصّور مفتعل ولا أساس له من الصحّة لعدم إثبات وجود نمط أو معيار تقاس به الانحرافات .هذا فضلا عن أنّ ليس كلّ انحراف أسلوبا (أدبيا) وليست كلّ لغة عادية خالية من الانحراف . ولا معنى لاعتبار الأسلوب مسألة انزياح بالنسبة إلى نمط معطى أو قاعدة متحققة بالقّوة دون تحديد طبيعة النمط أو القاعدة ووظيفة الانزياح . والأهم من الوقوف على إنشائية النصوص الأدبية ومقوماتها الفنية الكامنة في لغتها تَبِينُ أغراض القول المقامية أو الاستراتيجية الخطابية للنص بما هو قول، وهذا ما تحاول التداولية التوصّل إليه . إنّ فهم ملفوظ ما –بما

في ذلك الملفوظ الأدبي –يقتضي أن نسند إليه مقصدا . وإذا كان للمقصد الأسلوبي خصوصية فهي راجعة إلى كونه يدخل في نوع المقاصد التي تمكّن من تفسير سلوكات غير تواصلية [22]، وإلى كونه مقصدا" غير منفتح " أي لا يتوقف نجاحه على اعتراف المتقّبل به، في حين أنّ المقصد التواصلي مقصد "منفتح "يتوقّف تحقّقه على اعتراف المخاطب به وعلى ضرورة وجود مراجع مشتركة يعتمد عليها المتكلم لتبليغ مقاصده.[23]

–النص الأدبي تفاعل.

ينبني النص الأدبي – حسب النظرية التفاعلية –على" التفاعل Interaction "، من خلال استحضار المتكلم والمتلقي اللذين يدخلان في علاقة تفاعلية دينامية إيجابية أو سلبية حسب منطق السلطة، والتفاوت الاجتماعي والمعرفي والطبقي.

وللتوضيح أكثر، فإذا كانت النظرية الإبلاغية تهدف إلى نقل المعلومات، فإن النظرية التفاعلية تهدف إلى توطيد العلاقات الاجتماعية بين الطرفين المتحاورين تدعيما وتقوية وتعزيزا .وفي هذا الصدد، يقول الباحث المغربي "محمد خطابي : « يقصد بالوظيفة التفاعلية قيام شكل من أشكال التفاعل اللغوي بين فردين أو بين مجموع أفراد عشيرة لغ وية .على أن هذ الوظيفة الثانية تكتسي صبغة خاصة باعتبار أنه لا يهدف من ورائها إلى نقل المعلومات، وإنما إلى تأسيس وتعزيز العلاقات الاجتماعية والحفاظ عليها . إضافة إلى ذلك، فهي تعبر عن هذ العلاقات الاجتماعية والآراء والمواقف الشخصية والتأثيرات المرغوب إحداثها في العقيدة أو الرأي أو ما شابه ذلك .فمن الطبيعي – إذا – أن يهتم بهذ الوظيفة علماء الاجتماع وعلماء الاجتماع اللغوي ودارسو التخاطب وأضرابهم ».[24]

–النص الأدبي حجاج وإقناع.

تذهب التداولية الحجاجية إلى أن النص أو الخطاب عبارة عن روابط لغوية حجاجية، وخير من يمثل هذه المقاربة الحجاجية " أوزوالد دوكروDucrot " الذي أدخل البعد التداولي ضمن الوصف اللساني، باعتبار أحد مكوناته الرئيسة إلى جانب التركيب والدلالة على غرار شارل موريس .ويعني هذا أن البعد التداولي للملفوظ يوجد في اللغة نفسها، وليس مرتبطا بسياق تلفظي ما . ومن ثم، فالعلاقات الموجودة بين الملفوظات هي علاقة حجاجية، وليست منطقية استنباطية، بمعنى أن القواعد الحجاجية هي التي تتحكم في ترابط ملفوظات النص، وتسلسلها في علاقاتها بمعانيها.

هذا، والغرض من هذا الحجاج هو الإقناع والتأثير والتداول والتواصل والتخاطب .ومن ثم، فالحجاج فعالية تداولية جدلية دينامنيكية فعالة، وهناك نوعان من الحجاج : حجاج عاد عند البلاغيين الجدد، يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية. أي : مجمل الإستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع

مخاطبه. وفي هذا المجال، ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطا وثيقا، فاستعملت تقنيات البلاغة في عملية الإفهام والإقناع.[25]

-النص الأدبي استلزام حواري.

ترى المقاربة التداولية والوظيفية أن النص أو الخطاب الأدبي استلزام حواري وإنجازي . وهنا، نتحدث بطبيعة الحال عن الدلالات الصريحة والضمنية؛ فالاستلزام الحواري يتعلق بالدلالات الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي . ومن ثم، يرتبط الاستلزام الحواري بنظرية الأفعال كما هي عند أوستين وسيرل .أي : ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حواري استلزامي غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أوالسياق التداولي.

قد تكون معاني العبارات اللغوية صريحة، وقد تكون ضمنية؛ فالمعاني الصريحة هي التي تحمل محتوى قضويا، وتتوفر على القوة الإنجازية الحرفية .فهذا معنى مباشر صريح .أما المعنى الضمني فينقسم بدوره إلى قسمين : معنى عرفي يتعلق بالاقتضاء (الإحالة) ، والاستلزام المنطقي (الدلالة المنطقية)، ومعنى حواري ينقسم كذلك إلى معنى خاص (الاستلزام الحواري)، ومعنى معمم، وينتج عن كل هذا وجود أنماط من الأفعال حسب أوستين، وهي : فعل التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري.

-النص الأدبي حوارية تداولية.

اتّخذت دراسة الخطاب الأدبي باعتباره حوارا بعدين رئيسيين : بعدا تداوليا حجاجيا من خلال مفهوم "التوجيه الحجاجي " وبعدا أدبيا من خلال مفهوم" الحوارية"؛ أما الاتجاه الحجاجي في تحليل الخطاب الأدبي فينطلق أصحابه من القاعدة التي ترى أنّ كلّ خطابٍ حواري بالضّرورة ليؤكّدوا على أنّ وظيفة التكلم الأساسية هي الحجاج، وأعادوا قراءة مصنّفات الحجاج لتأكيد هذا المبدأ وتطبيقه على الخطاب الأدبي . ومن ذلك أنهم وظّفوا قراءاتهم ل" مصنّف في الحجاج : البلاغة الجديدة " لبيرلمان وتيتكا [26] في المجال الأدبي، وتوصّلوا إلى أنه « لا يمكن دراسةالبُنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية »[27] ، وهذا يعني ضرورة النظر إلى الأسلوب في معناه البلاغي الجديد أي الحجاج من خلال طريقة عرض الخطاب عرْضا حجاجيا منظما على نحو معّين للتأثير في المخاطب وتوجيهه وجهة يريدها المتكلم، ومن هنا يكون مجال اهتمام البلاغة الجديدة استراتيجيات الخطاب التي تهدف إلى إقناع المتقّبل والتأثير في موقفه بواسطة الوسائل اللسانية التي تسخرها اللغة للمتكلم . ولكن على الرغم من النّور الذي لعبه هذا المصنّف في ردّ الاعتبار إلى الحجاج لا باعتباره بلاغة جديدة فحسب بل باعتباره حوارا، فإنّ مفهوم الحوارية في الحجاج لم يتضح بشكل كاف إلا مع التداولية المدمجة التي أرسى دعائمها كل من أ .ديكرو

و"ج .ك .أنسكومبر J. C. Anscombre" وهي اتجاه حديث في الحجاج يقوم على دمج الدلالة (المكّون اللغوي) والتداولية (المكّون البلاغي) واعتبار الحجاج ماثلا في اللغة نفسها ومحكوما بشروطها وقيودها .

ومن هذا المنظور فإنّ « ترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي وإنما هو ترابط حجاجي لأنه مسجّل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجّه القول وجهة دون أخرى وتفرض ربطه بقول دون آخر».[28]

-النص الأدبي سياق.

يقوم السياق بدور هام في تحقيق اتساق النص وانسجامه .وفي هذا الصدد، يقول محمد خطابي : « إن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، بالمعنى المحدد سلفا، إذ كثيرا ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية (من حيث لغته)، ولكنه قد يتضمن قرائن(ضمائر أو ظرفا) تجعله غامضا غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه .ومن ثم، فإن للسياق دورا فعالا في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس، وماكان ممكنا أن يكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه»[29].

ويعني هذا أن النص الأدبي لايمكن أن يبقى منغلقا على ذاته، منطويا على بنياته السيميائية أو الصورية المجردة، بل عليه أن ينفتح على العوالم السياقية المتعددة الدلالات، بمعنى أن النص لابد أن يخضع لمبدإ التأويل السياقي من خلال الانفتاح على السياق النصي الداخلي، والسياق الخارجي المتعدد الأبعاد . وعليه أن يبين أنواع السياق التي تتحدد – حسب" باريت Parret " في : السياق النصي(تجاوز الجملة إلى سياق الخطاب)، والسياق الوجودي (الإشارة إلى أشياء العالم الخارجي)، والسياق المقامي (مجموعة من السياقيات الموقفية والاجتماعية والزمانية والمكانية والمؤسساتية)، وسياق الفعل (سياق نظرية الأفعال اللغوية)، والسياق النفسي (إدماج الحالات الذهنية والنفسية). ولا يكتفي الناقد بهذا، بل لابد من إبراز عناصر السياق التي تتمثل في : المرسل، والمرسل إليه، والعناصر المشتركة بينهما من معرفة مشتركة(معرفة عامة بالعالم، ومعرفة بنظام اللغة، ومعرفة بالزمان والمكان)...، وعلاقة اجتماعية تفاعلية، سواء أكانت علاقة حميمة أم رسمية (علاقة سلطة)، ولا ننسى أن نحدد إستراتيجيات الخطاب التي تربط الخطاب بالمقام السياقي ، ومن بين هذه الإستراتيجيات، نذكر :الإستراتيجية التوجيهية، والإستراتيجية التضامنية، والإستراتيجية التلميحية، وإستراتيجية الإقناع . وتستند هذه الإستراتيجيات إلى عاملين رئيسن هما : السلطة و المقصدية[30].

-النص الأدبي إحالة.

يُجمع الباحثون اللغويون على أن الإحالة مظهرا من مظاهر اتساق الخطاب اللغوي؛ وتنقسم إلى إحالة مقامية، وهي إحالة إلى خارج النص، وإحالة نصية لها علاقة وثيقة بالداخل النصي . وتنقسم الإحالة النصية بدورها إلى إحالة قبلية تحيل على سابق ما، وإحالة بعدية تحيل على لاحق ما، بينما تقوم الإحالة النصية بدور هام في اتساق النص وترابطه تماسكا وانسجاما.

---

[1] فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش: مركز الإنماء القومي، 1986، ص 8.

[2] Moeschler, Jacques et Anne Reboul : *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris, Éditions du Seuil,1994.

[3] دومينيك منقونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، 2006، ص 98.

[4] فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ص 8.

[5] عبد الحكيم سحالية، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، أعمال الملتقى الدولي السيمياء والنص الأدبي، العدد5، 2014، ص 422.

[6] المرجع نفسه، ص 424.

[7] آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم-علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2003، ص 54.

[8] أحمد المتوكل، الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية و التداوليات الحديثة، مقال ضمن كتاب: حافظ اسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2011، ص 2.

[9] جميل حمداوي، التداوليات و تحليل الخطاب، نشر إلكتروني بشبكة الألوكة ، ط1، 2015.

[10] المرجع نفسه، ص 9-39.

[11] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 9.

[12] المرجع نفسه، ص 10.

[13] للتوسع في أنواع المقصديات ينظر مثلا : بوشعيب شداق، مقصدية العمل الأدبي بين التقييد والانفتاح، مجلة علامات، مج 14 ، ج 54 ديسمبر، 2004 ، ص446 -456.

[14] شفيع بالزين، المقاربة التداولية للخطاب الأدبي، كتابات (مدونة ثقافية لنشر النصوص والكتابات الأدبية والثقافية)، تاريخ النشر: 10-06-2011، الصفحة:

http://chafii-kitebet.blogspot.com/2011/06/blog-post_1752.html

[15] Dominique Maingueneau, Pr agmatique pour le discours littér aire. p121

[16] شفيع بالزين، المقاربة التداولية للخطاب الأدبي، الصفحة:

http://chafii-kitebet.blogspot.com/2011/06/blog-post_1752.html

[17] فرناند هالين، التداولية، ترجمة عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية، العدد 125 ، 2006 ، ص73 .

[18] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 13.

[19] Catherine kerbrat-Orrecchioni, Enonciation de la subjectivité dans lelangage, Paris, Armond Colin, 1980, p: 181.

[20] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 24-25.

[21] شفيع بالزين، المقاربة التداولية للخطاب الأدبي، الصفحة:

http://chafii-kitebet.blogspot.com/2011/06/blog-post_1752.html

[22] Jon Arild Olsen, De l'analyse stylistique considérée comme explication intentionnelle, Romansk , n°16, 2002. p 669

[23] المرجع نفسه، ص 670-671.

[24] محمد خطابي، لسانيات النص، ص4 .

[25] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 29.

[26] Chaim Perelman et L. Olbr echs Tyteca, traité de l'argumentation. Presses Universitaires de France, Paris, 1958

[27] عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ضمن : أهم نظريات الحجاج، ص.317

[28] شكري المبخوت ، نظرية الحجاج في اللغة .ضمن :أهم نظريات الحجاج ، ص 352 .

[29] محمد خطابي، لسانيات النص، ص56.

[30] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 37.